السلوك الجنسي

-مقاربة سيكودينامية-

المقدمة

تُلبي المقاربة الديناميكية النفسية معيارًا قيمًا من الناحية الابستيمولوجية للتحليل النفسي- المعيار المنهجي. فهي طريقة لاكتساب المعلومات عن الحياة النفسية الداخلية للإنسان. هذه الحياة، تفترض هذه المقاربة، هي نتاج لعمل لا واعٍ، داخلي، ديناميكي ومتناقض.

من حيث المبدأ، تتمثل ديناميكية هذا العمل النفسي في إيجاد حلول وتوافقات تُصالح الفرد مع وضعه البشري. هذه المصالحة تعادل، في التحليل النفسي، حالة من التوازن تُرضي فيها رغباتنا الجنسية، سواء على المستوى الأولي أو الثانوي، مع مراعاة الاعتبارات الاجتماعية والثقافية.

على المستوى العملي، تهدف المقاربة الديناميكية النفسية إلى إقامة وضعية علاجية، حيث يقوم المُحلَّل (المريض) والمُحلِّل (المعالج) بالتفكير المشترك في موضوع لقائهما - المشكلة النفسية. في هذه الوضعية، يلعب كلا الطرفين دورًا فاعلاً بهدف فهم وتقييم الديناميكية النفسية المسؤولة عن الاضطراب أولاً، ثم خلق وضعية جديدة لتحويلات جديدة، من أجل السيطرة على الذات واستعادة بعض الأنماط العلائقية مع الآخرين والمحيط.

أهداف المقاربة السيكودينامية

1. فهم وتقييم الديناميكية الداخلية التي تلعب دورًا بين الدوافع وآليات الدفاع وأوهام المُحلَّل.
2. تفسير التعبيرات العقلية والأعراض والسلوكيات الكامنة وراء هذه الديناميكية.
3. إيجاد إجابات حول أصول الاضطرابات النفسية وطبيعتها وآلية عملها.
4. تحديد الإجراءات العلاجية المناسبة.

المقاربة السيكودينامية للسلوك الجنسي

تشتغل الرغبة الجنسية للإنسان منذ طفولته، سواء على المستوى التطوري الفردي أو الجمعي إذ يسعى الإنسان إلى إشباع هذه الرغبة من خلال استثمار مناطق الإثارة الجنسية وفقًا لأهميتها التحويلية في إرضاء الرغبة. ومن ذلك، فإن مصير الدافع الجنسي لدى البالغ يتأثر بهذه الجنسانية الطفولية، و التي تظل منفصلة عن المشاعر والتمثلات، فوضوية، ذاتية الإثارة، متعددة الأشكال ومكبوتة، مثلما يظهر في السلوكيات المنحرفة والصراعات العصابية.

يعتقد فرويد أن جميع الاضطرابات النفسية يجب أن تُدرس في إطار الجنسانية الطفولية المضطربة. ومنهجه هو أنه يجمع، اولا، العوامل المرتبطة بالأعراض العصابية، يحلل آليات تكوّنها، ويكشف المعنى الخفي وراء المعنى الظاهر، ثم يحاول الوصول إلى التمثيل المرضي الأخير للمشهد الجنسي الأولي. غير أن البحث عن هذا المشهد (الجنسي المؤسس) يبقى معقداً لسببين جوهريين:

أولاً: فما تكاد الصورة أن تنكشف، حتى تتبدد فوراً في تيار التداعي الحر، ولا يعود بالإمكان استعادتها.

ثانياً: تقوم عملية التخييل (فانتازيا) بحجب التمثيل المباشر للذكرى الجنسية الصادمة. فبين الذكرى الحقيقية وأثرها المتبقي، ينشأ الخيال كنتاج ذهني مصاحب للإثارة الجنسية التي أطلقها الحدث الواقعي.

تكمن وظيفة الاستيهام في تحقيق الإشباع والرضا عن الرغبة عبر قوته الهلوسية، لأنه يحل محل الواقع في إدراك المتعة المبتغاة.

السلوك الجنسي

-مقاربة سيكودينامية-

تستخدم ميلاني كلاين مصطلح "فانتازي" (phantasy) لتمييز المفهوم التحليلي للاستيهام عن المفهوم العام. ففي نظرها، تتشكل الحالة النفسية للإنسان وحياته الدافعية والآليات النفسية التي تُوظف للسيطرة على الدوافع وتوجيهها وتعزيز التكيف مع العالم، على مسرح الفانتازيات اللاواعية.

ويتمايز السوي عن غير السوي وفقاً لميلاني كلاين من خلال:

1- طريقة تشكل الفانتازيات وتعديلها،

2- درجة مساهمتها في تحقيق الرغبات (سواء بشكل مباشر أو غير مباشر) والتمكين من التكيف مع العالم.

فمن المنظور السببي، تمثل الفانتازيات البدائية منذ المراحل الأولى للحياة:

- الدوافع الجنسية (الليبيدية) والعدوانية للرضيع؛

- ثم تتحول مبكراً لأغراض دفاعية تشمل:

ا. السيطرة على القلق

ب. ضبط الدوافع

ت. تخفيف التوترات

ث. بالإضافة إلى النزعات الإصلاحية

وإذا أخذنا برأي كلاين أن الفانتازي هو المنبع لكافة أنشطتنا السلوكية والعقلية، فإن هذه الأنشطة لا بد أن تؤدي الوظائف نفسها التي تقوم بها الفانتازيات. وبالتالي، فإن السلوك الجنسي - وفقاً لهذا المنطق - يتجاوز أهدافه الجنسية والسادية ليقوم بوظائف دفاعية وإصلاحية.

الرغبة الجنسية وشعور الذنب

.يُعتبر شعور الذنب عنصراً أساسياً في العديد من الأمراض العصابية

في الواقع، يعمل هذا الشعور على خطين متناقضين: فهو من ناحية يعزز الرغبة الجنسية ويزيد من الإشباع، ومن ناحية أخرى يكبح هذا الإشباع، حيث يتزايد تشدد "الأنا العليا" باستمرار، بما أن «الأنا" يستدعيه لمساعدته في مواجهة المطالب الجنسية للهو. و هو الأمر الذي يؤدي إلى نشوء الصراع النفسي. لذلك، يستهلك الكبت والضغط الدافعي كمية كبيرة من الطاقة. استهلاك يفسر التأثير المتناقض لشعور الذنب، سواء لدى الشخص الذي يعيش في امتناع جنسي أو لدى شخص رونجوان منغمس في الملذات.

يستنتج فرويد من هذه الظاهرة أن الثقافة والدين قد قدما خدمة كبيرة للجنسانية بوصمهما لها بوصم الخطيئة. وفي هذا المعنى، يقول المحلل النفسي النمساوي-الأمريكي «ثيودور رايك»: «ليس للحشمة تأثير في كبت الرغبات الجنسية فحسب، بل تساهم أيضاً في تغذيتها و في كثافتها.

النزعة الإصلاحية في النشاط الجنسي

يؤدي الفعل الجنسي ثلاث وظائف:

1. الإشباع الرغبوي.

2. تهدئة القلق.

3. إصلاح الأضرار الناتجة عن الاستيهامات السادية.

جدول المقابلة بين الخيالات السادية وخيالات الإصلاح عند الفتاة:

السلوك الجنسي

-مقاربة سيكودينامية-

الاستيهامات السادية	استيهامات الإصلاح
إلحاق الضرر بجسد الأم	استعادة الأم لسلامتها الجسدية
انتزاع أطفال الأم قسراً	إنجاب أطفال لاستعادة السلامة الجسدية
انتزاع قضيب الأب قسراً	ممارسة علاقات جنسية بقضيب "مُنقذ"
فصل الوالدين عن بعضهما	خيال توحيد الوالدين: منح الأب دوراً إصلاحياً تجاه الأم (يتحول المهبل من مصدر خطر إلى وسيلة لإصلاح قضيب الأب

جدول المقابلة بين الخيالات السادية وخيالات الإصلاح عند الفتاة

تُشكل استيهامات الإصلاح أساس جميع الأنشطة والتسامي و تحدد مصير تطورنا النفسي-الجنسي. و يحكم الإصلاح «مبدأ التطابق»، الذي يتطلب أن تتوافق استيهامات الإصلاح تماماً مع الأضرار التخيلية التي ارتُكبت.

يُعد فعل الإصلاح حاسماً في اختيار الفتاة لموقفها الجنسي وميولها الجنسي الثابت. هناك ثلاثة عوامل تحدد هذا الاختيار:

1. طبيعة خيالاتها السادية.
2. شدة نزعاتها التعويضية.
3. قوة بنية «الأنا» لديها.

في هذا الإطار، يمكن فهم «البرود الجنسي الأنثوي» و «عقدة الذكورة». تقول «» كارين هورناي» في كتابها "هروب الأنوثة" (1927) إن البرود يشير إلى أن الرغبات والخيالات المحرمة، التي تربطها الفتاة لا شعورياً بمنطقة الفرج، قد تسببت في "انفعالات قلقة دفاعية تستمر بقوة وبشكل مبكر المناطق المهبلية والبظرية». و لذلك، يدافع «الأنا» بإلغاء الإحساس بالمتعة الجنسية، مما يزيد القلق الجنسي ويعزز النزعات الذكورية لدى الفتاة.

أما «عقدة الذكورة» فتنتج عن رغبة الفتاة في امتلاك قضيب «مُنقذ»، يمكنه أن يحمي جسدها من التدمير ويعوض الأم عن القضيب الذي «سرقته» منها. وبالتالي، فإن هذه العقدة هي عملية دفاعية ضد القلق والذنب، تعززها النزعة السادية لدى الفتاة.

السلوك الجنسي

-مقاربة سيكوديناميّة-

الخاتمة

تنبثق المقاربة الديناميكيّة النفسيّة من حوار بين الاستنتاجات النظريّة والبيانات السريريّة، مع التركيز على الديناميكيات اللاواعيّة التي تحكم الحياة النفسيّة. تهدف هذه المقاربة إلى إنشاء إطار علاجي يسمح بانتقال المحتويات اللاواعيّة إلى الوعي عبر التحويلات الجديدة وإعادة اختبار الصراعات بشكل واعٍ.

تُصور الديناميكيّة النفسيّة، بصراعاتها اللاواعيّة، عبر نموذج جنسي، حيث تمثل الجنسانيّة صراعاً بين مبدأ اللذة ومبدأ الواقع. تعتمد السيكولوجيّة الطبيعيّة أو المرضيّة على التاريخ الجنسي لكل فرد.

تساهم هذه المقاربة في فهم:

1. دور الخيال كضامن للتوازن النفسي.
2. الصراعات الدراميّة على مسرح الجنسانيّة.
3. العلاقة المعقدة بين الرغبة الجنسيّة والذنب.
4. النزعات الإصلاحيّة في السلوك الجنسي.

وهكذا، تُعد المقاربة الديناميكيّة النفسيّة أداةً مفيدة لفهم التعقيدات النفسيّة-الجنسيّة وتطور السلوكيات الجنسيّة العصابيّة أو المنحرفة.